ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
DOAJ API documentation: 359c88a5cecf4f7faa1c2f538c431346

محاولة دراسة شخصية ابن خلدون النفسية والذهنية

طارق يشي

باحث دكتوراه - كلية الآداب - ظهر المهراز
مختبر البيبليوغرافيا التاريخية والتوثيق للتراث المغاربي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر شخصية ابن خلدون من بين الشخصيات البارزة التي طبعت تاريخ الحضارة العربية بصفة خاصة، والعالمية بصفة عامة، وقد ساهمت مجموعة من العوامل النفسية والذهنية في تكوين هذه الشخصية، ويأتي هذا المقال من أجل التعرف على أهم المقومات التي ساهمت في تكوين شخصية هذا العالم الموسوعي، من خلال تتبع أهم الشخصيات التي أثرت في تكوينه الفكري، خاصة منها الشخصيات القريبة منه، أي من أسرته الصغيرة والكبيرة، ودور تاريخها الحافل في تشجيعه على المضي قدما من أجل إثبات الذات، ورصد الأحداث التي ساعدته على تحقيق غاياته، سواء منها الأحداث التي افتخر بها في كتاباته، أو تلك الأحداث السيئة التي تركت له حبا للمغامرة من أجل الرقي في سلم المناصب السياسية، ليخلص هذا البحث في الأخير إلى ذكر بعض المميزات التي اتسمت بها شخصية ابن خلدون، وخاصة تكوينه الموسوعي مجاليًا وفكريًا، الذي دفعه إلى شغف كبير نحو العلم والتعلم، فتصارع هذا الشغف بداخله مع حبه للمناصب السياسية التي لجأ في بعض الأحيان للحيلة والمكر للوصول إليها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠١٣
تاريخ قبـول النشـر: ٦ يناير ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

الحضارة العربية، مجالس العلماء، كتاب العبر، كتاب الرحلة، العلم والسياسة

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

طارق يشي. "محاولة دراسة شخصية ابن خلدون النفسية والذهنية".- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والثلاثون؛ مارس ٢٠١٦. ص١٠٤ - ١٠٧.

مُقَدِّمَة:

إن الحديث عن المفكر العربي والإسلامي ابن خلدون هو حديث القديم الجديد، ويعود ذلك إلى التراث الذي خلفه للبشرية، هذا التراث الذي كلما درس كلما أظهر معطيات جديدة، ويتضح ذلك من خلال النتائج التي يخلص إليها الباحثون في مختلف المجالات التاريخية والاجتماعية والدينية[١] والفلسفية وغيرها.. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الثقافة الموسوعية التي اتسمت بها شخصيتنا المركزية في هذا المؤتمر، والتي لقيت اهتماما واسعا من قبل مختلف المفكرين العالميين، الذين استخرجوا مجموعة من نظرياته، إلا أن مجموعة منهم ركزت على أسبقية ابن خلدون في طرح مجموعة من الافكار السياسية والاجتماعية، وأن أكثر هذه الافكار لم يتم التعرف عليها إلا بعد وفاة ابن خلدون بحوالي خمسة قرون، وقد أشار محمد عابد الجابري على ضرورة التحذير من هذا الخطأ المنهجي، الذي ينظر إلى أفكار ابن خلدون انطلاقا من الفكر المعاصر، بالرغم من أن كل فكر مرتبط بالعصر الذي ظهر فيه[٢]. من هنا تأتي أهمية هذه المحاولة من أجل وضع تصور شمولي ومقتضب حول ذهنية ابن خلدون، والعوامل التي ساهمت في تشكلها، رغبة منا في المساهمة في دراسة أفكار ابن خلدون دراسة تبتعد عن السقوط في مطبة الاسقاط.

١ـ سيرة ابن خلدون

تعتبر حياة ابن خلدون حافلة بالأحداث المثيرة، سواء منها الشخصية أو تلك التي ميزت عصره بصفة عامة، خاصة وأنه جاء في فترة حرجة طبعت المجتمع الاسلامي بتوالي الهجمات والنكسات عليه، سواء الصليبية أو المغولية. أضف إلى ذلك الصراعات المتتالية على

السلطة في منطقة الغرب الإسلامي والتي أثرت على ابن خلدون الذي كان مساهمًا فيها بشكل أو بآخر. إن عائلة ابن خلدون عائلة علم وسياسة، فقد ذكر في رحلته بان جده كان زعيم ثورة إشبيلية[٣] وجده الثاني ترأس الوزارة بتونس ومات مقتولاً في إحدى ثوراتها،[٤] وجده الاول تولى الوزارة، "وأما والده فقد آثر حياة العلماء، وعزف عن السياسة، فكان يدفع اولاده إلى التردد على مجالس العلماء".[٥]

ولد سنة (٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) في إفريقية، ويمكن أن نقسم حياته إلى قسمين، الجزء الذي قضاه في منطقة الغرب الإسلامي بما فيها الأندلس، والقسم الذي انتقل فيه إلى مصر. فبالنسبة للمرحلة الأولى تتلمذ فيها على يد مجموعة من العلماء أدرج أسمائهم وترجمتهم في رحلته[٦]، ومن ثَمَّ انطلق في خضم السياسة حيث تقلد مجموعة من المناصب من الكتابة والحجابة. تخللتها فترة سجنية قدرت بحوالي سنتين، وذلك في عهد السلطان المريني أبي عنان، كما توج هذه المرحلة بتأليف كتاب العبر. أما المرحلة الثانية في القاهرة التي تقلد فيها منصب التدريس في جامعها الأزهر، بعد أن ذاع صيته، وبالرغم من أنه كان يرغب في التفرغ إلى العلم فقط، حسب ما صرح، إلا أنه انغمس لا في السياسة وحدها، بل في المناورات والمنازعات بين السلاطين".[٧] هذا باختصار وجيز أهم المراحل التي مر منها ابن خلدون في حياته،[٨] فما هي أبرز الشخصيات التي أثرت في شخصيته وفكره؟

٢ـ الشخصيات التي أثرت على تكوينه الفكري

أسرة ابن خلدون أسرة علم وسياسة، ولابد أن نعترف أن اكبر تأثير على شخصية هذا المفكر هي هذه الأسرة التي ذاع صيتها، فربطت فكره بعنصرين أساسيين: السياسة والعلم، وهذه هي الازدواجية التي سارت عليها حياة ابن خلدون، فما أن يبتعد عن السياسة للحظة حتى تجده قد اشتهر بالتدريس والتأليف، إلا أن رغبته السياسية دائمًا كانت حاضرة بقوة. وبالإضافة إلى الأسرة يمكن أن نشير إلى الأساتذة الذين تتلمذ على أيديهم، والذين أورد ترجماتهم في كتابه الرحلة ومنهم:

اسم العالم	أصوله	اهتماماته العلمية	ملاحظات
أبي عبد الله محمد بن سعد بن برال الانصاري	الأندلس بلنسية	إماما في القراءات	
والد ابن خلدون	افريقية	قرأ عليه العربية[٩]	
الشيخ ابو عبد الله بن العربي الحصايري		إماما في النحو	
ابو العباس أحمد بن القصار	تونس	النحو	
أبو عبد الله محمد بن بحر	تونس	إمام العربية والادب علوم اللسان[١٠]	
شمس الدين ابي عبد الله محمد بن جابر بن سلطان		إمام المحدثين	أجاز ابن خلدون "وأجازني إجازة عامة"[١١]
- أبوعبد الله محمد بن عبد الله الجياني - ابو القاسم محمد القصير		الفقه	
ابي عبد الله محمد بن عبد السلام		الفقه	قاضي الجماعة[١٢]
ابو عبد الله محمد بن سليمان السطي		إمام مذهب مالك شيخ القتيا في المغرب[١٣]	
أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي		أخذ عنه سماعا وإجازة مجموعة من الكتب الدينية كالموطأ والسير لابن اسحاق..	كاتب السلطان أبي الحسن
الشيخ ابو العباس أحمد الزواوي		قرأ عليه القرآن الكريم[١٤]	
أبوعبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي	تلمسان	شيخ العلوم العقلية[١٥]	
ابو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي		لم يتخذه شيخًا لمقاربة السن، ولكنه أفاد منه في مجموعة من التخصصات كفقه الوثائق والبلاغة و الشعر..	كان كاتبًا للسلطان وإماما له في الصلاة.[١٦]
محمد بن إبراهيم الآبلي	الأندلس	العلوم العقلية[١٧]	
ابو العباس أحمد بن شعيب	فاس	"برع في اللسان والادب والعلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب.."[١٨]	

لقد تعمدنا سرد هؤلاء الشيوخ في محاولة منا استنباط العناصر التي ساهمت في تشكيل فكر ابن خلدون، ومن خلال نظرة أولية تتضح موسوعية الفكر الذي تلقاه واستفاد منه المفكر، سواء من الناحية الجغرافية - حيث تتلمذ على يد عدد كبير من الشيوخ من مناطق مختلفة وخاصةً المغرب وتونس والأندلس، وهؤلاء الشيوخ، حسب ما ورد في ترجمتهم، أخذوا العلم من مصر والمشرق وغيرها- أو من الناحية المعرفية الفكرية، التي كانت موسوعية، ولم يقتصر على العلوم النقلية الدينية فقط بل اعتمد ودرس العلوم العقلية من

منطق وفلسفة وغيرها، فكان ذلك بمثابة الطريق الاولي لتكوين فكره العلمي،".. وقد كان بعض علماء زمانه لا يحفلون كثيرا بدراسة العلمين الأخيرين، بل يحرمون دراستهما"[١٩]، ومن هنا جاء هذا الاستثناء، الذي جعل ابن خلدون يتصدر للتدريس في مجموعة من الاماكن التي لم يكن يصل إليها إلا العلماء المشهورون، حيث درس بجامع القصبة في مدينة بجاية، وجامع القرويين بفاس، والجامع الازهر في القاهرة، والمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص في الفسطاط، والمدرسة الظاهرية البرقوقية في حي بين القصرين في القاهرة.[٢٠]

ونلاحظ من خلال مجموعة من التعابير الشغف العلمي الذي كان يراود مفكرنا هذا، إلا أن هذا الشغف واكبه شغف آخر بالسياسة، فماهي العوامل السياسية التي ساهمت في استكمال الفكر الخلدوني؟

٣ـ الأحداث التي ساهمت في بلورت شخصيته

ارتقى ابن خلدون في سلم الوظائف السياسية بكل من إفريقية والمغرب والأندلس، واستطاع أن يحظى بثقة السلاطين، الذين أكرموا وفادته غير ما مرة مما جعل ثقته تزيد بنفسه، ويتضح ذلك من خلال ما ذكره في رحلته:

- "فلما وفد السلطان، وفدت معهم، فنالني من كرامته وإحسانه مالم أحتسبه"[٢١]
- وقد اهتز السلطان لقدومي وهيأ لي المنزل من قصوره، بفرشه وماعونه، وأركب خاصته للقائي، تحفيا وبرا.."[٢٢]
- "..ثم وصلت إلى السلطان فحيا وفدى، وخلع وحمل..."[٢٣]

لقد كانت شخصية ابن خلدون شخصية جذابة، تجتذب أنظار السلاطين والرؤساء، حيث عينه سلطان تونس كاتب العلامة ولم يكن سنه قد تجاوز الثامنة عشرة، وجذبته أنظار السلطان أبي عنان المريني فعينه عضوا بمجلسه، وابو سالم المريني، عينه في منصب كاتب السر والإنشاء، بالإضافة إلى تعيينه كسفير إلى أمير قشتالة، والحجابة في بجاية الذي هو أعلى منصب في الدولة، وفي مصر عين قاضيا للقضاة، هذه الشخصية الجذابة ساهمت في تشكلها عوامل متعددة، فكرية أولا، ثم الاطلاع الواسع لابن خلدون على شؤون الدول والحضارات الإسلامية، ومعرفته بخبايا الأمور وظواهرها، وذلك ما اكتسبه من خلال تجاربه والتي استفاد منها في المغرب والمشرق والأندلس.

٤ـ خلاصات حول مميزات شخصية ابن خلدون

من خلال ما سبق يمكننا أن نستنتج بعض المقومات الفكرية والذهنية التي طبعت شخصية ابن خلدون:

- التكوين الفكري لابن خلدون هو تكوين مختلط به ثقافات مختلفة (الثقافة الأندلسية حيث انه قرأ القرآن على يد الاستاذ المكتب ابي عبد محمد بن سعد بن برال الانصاري الذي هو من جالية الأندلس[٢٤]) والثقافة الافريقية -نسبة إلى إفريقية تونس، والمغربية - المغرب الاقصى- بالإضافة إلى المشرقية (الحجاز، الشام، وخصوصا مصر) كل هذه العوامل ساعدته على فقه التركيبة المجتمعية، والسياسية للعالم الإسلامي والخروج بخلاصات صنفت ضمن أهم النظريات التي عرفها العالم بصفة عامة.
- شغف كبير بالعلم ورغبة في التخلص من السياسة لحضور المجالس العلمية، حيث أدرج غير ما مرة هذه الرغبة، ومن ذلك".. وقد كنت منطويًا على مفارقتهم لما أصابني من الاستيحاش لذهاب أشياخي، وعطلتي عن طلب العلم"[٢٥]، وقد كرر فذف الرغبة ٧ مرات[٢٦]، ويبرر الباحث مصطفى نبيل هذا النزاع الداخلي لابن خلدون في شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية، التي لا يعرفها إلا من كان في قلبها، وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسي وطبيعة حياته الصاخبة والتي استخرج من رحيقها كتابه العبر[٢٧]
- إحساسه المتزايد بتفوق العلم على السياسة، فكان هناك صراع داخلي ينتاب ابن خلدون حول اختيار العلم والسياسة. "فلما رجع بنو مرين إلى مراكزهم بالمغرب، وانحسر تيارهم عن إفريقية، وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابه وأشياخ، فاعتزمت على اللحاق بهم، وصدني عن ذلك أخي وكبيري محمد، رحمه الله. فلما دعيت إلى الوظيفة، سارعت إلى لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب.."[٢٨]
- شخصية ابن خلدون شخصية طموحة إلى حد المغامرة إذ كان يشارك في بعض الدسائس من أجل الارتقاء في السلم السياسي، حتى أنه كان كاتبا للمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، وتآمر عليه سرًا رغبة في توليه السلطان أبو سالم، وذلك ما توضحه عبارات كثيرة في رحلته" ..واستعان بي على أمره.." ".. وأوصل إلي كتاب السلطان أبي سالم بالحض على ذلك وإجمال الوعد فيه، وألقى علي حمله، فنهضت به، وتقدمت إلى شيوخ بني مرين وأمراء الدولة بالتحريض على ذلك..."[٢٩]
- له موقف سلبي من الكيمياء حيث يذكر: "وكان له- أبو عبد الله محمد بن عبد النور- عفا الله عنه- كلف بعمل الكيمياء، تابعا لمن غلط في ذلك من أمثاله، فلم يزل يعاني من ذلك ما يورطه مع الناس في دينه وعرضه، إلى أن دعته الضرورة للترحل عن مصر، ولحق ببغداد، ونالـه مثل ذلك فلحق بماردين، واستقر عند صاحبها"[٣٠] فصاحب الكيمياء كان مرفوضا في المجتمع العربي وذلك ما سار عليه ابن خلدون في موقفه هذا، وهنا يمكن أن نسوق ما ذكره الحسن بن محمد الوزان الفاسي في كتابه وصف إفريقيا: "لا تظنوا أن عدد الكيميائيين قليل، بل العكس، فإن الذين يتعاطون لهذا الفن الجنوني التافه كثير جدًا، وهم أقر الناس قدارة وأنتنهم رائحة بسبب الكبريت وغيره من المواد الكريهة الرائحة التي يعالجونها بأيديهم".[٣١]

بصفة عامة، تبقى هذه مجرد محاولة لدراسة هذه الشخصية ودعوة موجهة لكل الباحثين من أجل النفاذ إلى عمق الشخصية وفهمها فهمًا أوضح.

خاتمة

خلاصة القول؛ إن التكوين الفكري والنفسي لشخصية ابن خلدون، ساهمت فيه مجموعة من العوامل، من أبرزها: أسرته العالمة والتي تقلد بعض أعضائها مناصب سياسية مميزة، فشكل ذلك حافزًا لدى عالمنا، وارتبطت هذه الثنائية (العلم والسياسة) به إلى فترة وفاته، كما كان لأساتذته ورحلته العلمية دور في خلق فكر موسوعي، علميا ومجاليًا، شمل تخصصات علمية كان البعض يكفر دراستها في تلك الفترة الزمنية، خاصة الفلسفة وعلم المنطق، والموسوعية المجالية نشأت لديه جراء تلقيه عدة ثقافات عربية مشرقية ومغربية وأندلسية، حتمت عليه الاحتكاك مع فئات واسعة من المجتمع العربي، ليتوج هذا التكوين بتقلد بعض المسؤوليات العلمية والسياسية، وكان هناك صراع داخلي لدى ابن خلدون حول اختيار المسار العلمي أو السياسي، حتى أنه أبدى رغبته في بعض المرات التخلي عن السياسة والتركيز على التأليف، إلا أن طموحه الجامح كان يمنعه في كثير من الأحيان، واستمر هذا الصراع الداخلي لفترة زمنية ليست بالقصيرة، وبذلك فشخصية ابن خلدون شخصية ، طموحة إلى حد استعمال المكر للوصول للمناصب السياسية، ذات تكوين موسوعي، إلا أن هذا الأمر لم يمنع من نبذه لبعض التخصصات العلمية، وسار مع نظرة المجتمع التحقيرية لها.

الهَوامِشُ:

(١) من نماذج ذلك: منى أحمد أبو زيد، **الفكر الكلامي عند ابن خلدون**. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٧.

(٢) محمد عابد الجابري، **فكر ابن خلدون العصبية والدولة**، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي. مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، ص ص٩- ١٠.

(٣) عبد الرحمان ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون**. تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٤، ص ٢٩-٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٢-٣٤.

(٥) مصطفى نبيل، **سير ذاتية عربية من ابن سينا حتى علي باشا مبارك**. دار الهلال، الاسكندرية، ٢٠٠١،

(٦) عبد الرحمان ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون** (م.س)، ص ٣٦-٦٤.

(٧) مصطفى نبيل، **سير ذاتية عربية من ابن سينا حتى علي باشا مبارك** (م.س).ص ١٦٠.

(٨) يمكن الاطلاع على تفاصيل دقيقة من سيرة ابن خلدون في رحلته السابقة الذكر، بالإضافة إلى كتب أخرى كـ: مصطفى نبيل، **سير ذاتية عربية من ابن سينا حتى علي باشا مبارك**.- طه حسين، **فلسفة ابن خلدون الاجتماعية**، تحليل ونقد. ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة الاعتماد، ط١، ١٩٥٢.

(٩) عبد الرحمان ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون** (م.س)، ص٣٨.

(١٠) عبد الرحمان ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون** (م.س)، ص٣٨.

(١١) المصدر نفسه، ص٣٩.

(١٢) المصدر نفسه والصفحة.

(١٣) المصدر نفسه، ص٤٠.

(١٤) المصدر نفسه، والصفحة.

(١٥) المصدر نفسه، ص٤١.

(١٦) المصدر نفسه، ص٤٢.

(١٧) المصدر نفسه، ص ص٤٩-٥١.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٩) مصطفى الشكعة، **الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظريته**. الدار المصرية اللبنانية، ط٣، ١٩٩٢، ص٢١.

(٢٠) مصطفى الشكعة، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢١) المصدر نفسه، ص٦٧

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٩٥.

(٢٤) ابن خلدون، **رحلة ابن خلدون**، ص٣٦.

(٢٥) ابن خلدون، مصدر سابق، ص٦٥.

(٢٦) مصطفى نبيل، مرجع سابق، ص١٦٠.

(٢٧) المرجع نفسه والصفحة.

(٢٨) المصدر نفسه والصفحة.

(٢٩) ابن خلدون، (م.س) ص ٧٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٣١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**. ترجمة: محمد حجي ومحمد الاخضر، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ٢٧٥.